الزهراء

ج ١٠ : م ١ — ١٥ شوال ١٣٤٣

المذهب الجديد

ما رأيت دعوة تنهافت من نفسها بكل ما فيها من الوهن ، على دعاتها بكل ما فيهم من ضعف اليقين بها ، كهذه الدعوة التي يتهافت بها جماعة لا يُعدُّون منا إلا كما يُعدُّ من الانسان أنفه وهو أذنٌ . . وهي الدعوة إلى الاباحية اللغوية.

فبين ظهرانينا من أولئك الدعاة ، جماعة نعرفهم في عصرنا كما يعرف الجوهريّ الماس المصنوع : لا هو من الماس ، ولا هو من الحصا ، ولكنه جنس بينهما ؛ وقديماً عرف سلفنا سلفهم وهم الانباط ، فقد كانوا بين العرب والعجم جنسا لم يستقل بنفسه ولم يلتحق بأحد الجنسين .

وفي أسماعنا من دعوتهم صدى لأخرى سبقتها بعشرة قرون أو أكثر ؛ فقد ظهر في العصر العباسي من دعوا الى احالة هذه العربية الفصحى الى عامية مصرية . فجاء هؤلاء بعد هؤلاء على طراق واحد كما ترى .

لقد جهد سلفهم في صدر ذلك العصر أن يطبعوا هذه اللغة على ألسنتهم إذ عز عليهم أن يطبعوا ألسنتهم عليها ؛ وفيمن يسكنون سفح الجبل الذاهب في الافق من إذا عز عليهم أن يصعدوا القمة ، تخيلوا السفح يصعد لأن القمة لا تهبط والجبل قارّ في موضعه وسفحه أسفله أبدا وقمته أعلاه أبدا .

أجل ؛ يريد هؤلاء أن تكون هذه العربية بملكهم ، ولو سلمت لهم لصنعوا بها ما يصنع الوارث القاصر إذا صارت اليه تركة عريضة ، فصارُه أن يثبت القصور على نفسه بنفسه ، إذ يكون كل عمله فيها ، فنا من العبث بها ، ولا تعدم ـ اذا قلت له في ذلك ـ أن يقول لك انه حر ، فانظر الى حرية ترشح للوصاية . . .

ويقولون انهم آتون بمذهب جديد ، لا يتأتون بهذه القالة ولا يتحرّجون ، كأن هذه اللغة لباس ينسخ زِيٌّ منه زياً . وكأنهم أتوا من باريس الازياء مبشرين منها بفن جديد !

أصحاب مذهب جديد في سياسة اللسان ؟ نعم وان في روسية لاباحية أخرى ولكنها مادية ، وهي مذهب جديد أيضا ولكن في سياسة الاجتماع !

لقد كان في اللغة منذ انشقّت نبعتها عن عربيّ فصيح وعاميّ معرب ، شيء من نحو هذا ، ولكنه لم يكن نزاعا بل كان من أحد الجانبين اعترافا بالعجز ، ومن الجانب الآخر اعتزازاً بالقوة ، ولست تعرف النقص في شيء الا اذا اعتبرت الكمال في شيء آخر .

ثم ما هذا الذى يستبيحون أن يسموه مذهبا ويصفوه بأنه جديد إلا صورة لتلك الفكرة القديمة التي كانت في بداية أمرها عذرا من جرم الجهل بالفصيح ، وإن كان هذا العذر ردًّا على أهله ، فقد جعل هؤلاء ذلك العذر رأيا ، وجعلوا ينشيعون لهذا الرأى ، وينضحون عنه ، وهذه فيما علمت أغرب قضية لأنها من منطق هذا الزمن !

وأنت فلو رجعت بهذه الشيعة عراضا على ماضيها في النشأة اللغوية ، لرأيت جماعة تلقّفوا كل مادتهم من صناعة العربية من مثل الجزء الأول من الدروس النحوية أو منه ومما يليه ، وكل مادتهم من اللغة من القصص التي تضرب بها دور الطبع عرض الافق ، وهي كما تعلم لا تساوي إلا اقلّ من وزنها ورقا أبيض ، وربما أطالوا النظر في بعض الصحف التي تنشر لتطوى ، فحذقوا أسلوبها فجاؤا بهذا

كله أسلوبا آخر من الخلق .

وإنك لترى الدعاة إلى هذه الفتنة إما كويتبا يكتب بحروف عربية لغة كأنها افرنجية ، وإما مترجما يسوي بين لغتيه في الاساءة إليهما حين ينقل من تلك إلى هذه ، وإما مؤلفا يمتحن الاديب صبره بقدر مايطيق النظر في تأليفه ، وقد يجتمع ثلاثتهم في واحد ليجتمع ماتفرق من البلاء في جهة واحدة . . .

وانى لأعرف من هؤلاء من إذا أخطأ بصواب ، أو وفق على غير إرادة منه إلى تركيب فصيح ، أو وقعت له من حيث لايدري جملة بليغة ، تألم وكره ذلك من نفسه ، وكرهت ذلك منه شيعته ، وقالوا إنها نزعة رجعية ! وربما كان جزاؤه على ذلك أن يحرم شرف الانتساب إلى المدرسة الجديدة !

ولقد غلا فتيان المدرسة الجديدة فيما يتوهمونه ازراء بشيوخ المدرسة القديمة ! بل بلغ من كراهتهم للسان العربي المبين أنهم يتمنون لو كتبوا بأقلامهم تاريخه لتضع أقلامهم هذا التاريخ سقطاً حتى لايظل حيا مابقى القرآن الكريم ، وهو المعجزة الالهية لهذا اللسان ، وكائن ترى من معجزة في لغة تتبين في نقصها عظم ذلك الكمال .

ولعمرى ماطوعت لامرىء نفسه أن يخدم المستعمرين أو يؤجر على خدمتهم بأكثر من إفشاء هذه الضلالة التي لا تعدو أبدا أن تكون ضلالة ، فما هي في مرد أمرها إلا محاولة لسل هذه الأمة من تاريخها ، وما انسلخت أمة من تاريخها إلا جهلته ، وماجهلته إلا كان مثلها مثل الرقيق الذي يألف من فقدان حريته أن يسخر نفسه طوعا ، إذا لم يجد مالكا يسخره طوعا ، على أن يؤجر بمساك حياته إذ تكون حريته مادة في معدته ، بعد أن كانت معنى روحانيا في فطرته .

وقد سمعنا هذه الدعوة منذ ربع قرن ، ولكنها كانت في كل فترة بحسبها: فظهرت أول ما ظهرت على لسان مستشار انجليزي لحكمة الاستئناف ، وكانت كل حجته في دعوته الرغبة في النزول باللغة الى مستوى العامة ، فانبرى له حكيم

العصر الامام المغفور له محمد عبده فقال : بل نصمد بالعامة الى افق الفصيح . فسكنت الثائرة فترة . ثم ظهرت باسم « تمصير اللغة » فانبرى نابغة الأدب ، وفخر كتاب العرب ، السيد مصطفى صادق الرافعي فصدف قلمه بتلك البدعة وقال بل نعرّب المصرية . ثم عادت فظهرت في الايام الاخيرة في صورة ثالثة ، وما أكثر ما يلبس الشر محضا ، من صور الخير المحض ، فسمعنا الجماعة يدعون الى « العامية » باسم أنها مذهب جديد . وجعلوا يرسلون دعوتهم كما تنسحب موجة ضعيفة واهنة على الشاطىء لترتدّ عنه وهي بعدُ موجة ضعيفة واهنة وهو أبداً ذلك الشاطىء .

ولو سألتهم ما ذا يريدون لأفتوك أنهم يريدون هذه اللغة بلا قواعد ثابتة لينحتوا لها من فِطرهم قواعد متحركة ويطلبونها بلا مادة ليكون طبعهم هو وحده مددها ، ويبنونها عِوجا لأن ملكاتهم لا تستقيم إلا على هذا العِوج ، ويحبون أن تكون على عذبات ألسنتهم وأسلات أقلامهم كما يكون الشمع في أيديهم طواعية ولينا . وموجز هذا أنهم يريدون لغة بدعا من اللغات جميعا فلا تخرج مخرجها بمادة مقررة ، ونظام معيّن لاوضاع هذه المادة ، وأصول نابتة لذلك النظام بل يحبون أن تنبت وتثبت كما ينبت قرن الوعل على استواء ، ويثبت على التواء ، فهم يفصلون العربية على قياس آخر من خطرات أقلامهم ، وهجسات أحلامهم ، ويزعمون على هذا ، والمصائب لا تأتى فُرادى ، أنهم يحررون اللغة من رقها القديم . . .

فهل ترى ذلك إلا مظهرا من ضيق الذرع ، وإلا فناً من الذهاب بالنفس ، وإلا ضربا من جماح الفكر ؟ ؟

وماذا يكون المصير إذا استحدث أهل كل قطر من الدنيا العربية عربيةً لهم ، وحارت هذه تحت كل أفق مواضعة واصطلاحا بين من يُظلّهم ، ثم انقطع

ما بين هؤلاء جميعاً ومن يلونهم إلا أن يكون من كل جيل برج بابل ... وأن تجتمع لنا على تتالي العصور عدة أبراج ؟؟

ومن عجب أمر هؤلاء ، وأمرهم عجب كله ، أنهم يحمسون لذلك الرأي وينضحون عنه كأنما بلغ منه أن ينهض له ويحتفل به .

ألا فلتثب هذه الجماعة الى الرشد ، ولا تضع في احدى كفتي الميزان هذه الحصاة لان في الكفة الاخرى جبلا قائما برأسه ، فان أشقى الكاتبين من يحاول والقلم في يمينه أن يشرع منه مثل قرن الوعل ، ليضرب به في رأس هذا الجبل ، واذ جدّ بهم الحرص على خدمة المستعمرين فليأتوهم من باب آخر غير هذا الباب الذي سيبقى موصداً الى يوم الحساب .

القاهرة — محمد صادق عنبر

خواطر مريض

أقولُ فلا أرتاد غير خصيبِ ... وانظمُ لكن لا أطيل نسيبي
أجدُّ وان رام النديم دعابة ... فلم تر غير الجدّ عين رقيبي
أحثُّ الى داعي المعالى مطيتي ... ولست اذا يدعو الهوى بمجيب
وما برحت هذي الحياة تروعني ... بكبوة آمال وقد حبيب
فأنكرتها لا البدر يطلع مؤنسا ... ولا الروض يسليني بنفحة طيب
وما ليلها إلا سريرة حاسد ... وما صبحها الا بياض مشيب

***

أطلّ عليَّ الموت من خلل الضنا ... فآنست وجه الموت غير كئيب
ولو جسّ أحشائي لحلت بنانه ... وان هال أقواما بنان طبيب
فلا كان من عيش أرى فيه أمتي ... تُساس بكفي غاشم وغريب

محمد الخضر حسين